سورة فاطر

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾ ﴾

فَاطِرِ : مبدع ومخترع.

مَا يَفْتَحِ اللهُ : ما يرسل الله .

لقد خلق الله الملائكة لحمل رسالته والقيام بتنفيذ أحكامه، ولكن الشيطان ألقى في قلوب الناس أن الملائكة يتمتعون بالاستقلال الذاتي التام ، بحيث يمكن أن يُتوسل بهم لتحصيل البركات في الدنيا ونيل النجاة في الآخرة، ومن هنا أخذت بعض الأمم تعبدهم باتخاذ تماثيل مزعومةٍ لهم بأسماء اللات والمناة ونحوهما، بينما جعلت بعض الأمم الأخرى من الملائكة آلهةً أنداداً لله ، وبدأت بعبادتها وتقديسها، وإن تعظيم قانون الطبيعة (Low of nature) في عصرنا الحاضر هو الآخر ليس إلا طبعةً جديدةً لهذا الضلال القديم .. ولكن الحقيقة هي أنه بأي اسم سمينا القوى المدبرة لشئون الكون – بقوانين الطبيعة ، أم بالملائكة – فإنها جميعاً محكومةً خاضعةً لمشيئة الله الواحد ، عاملةً طبقاً لأمر الله الواحد ، لا تطيق الخروج عليه ولا الانحراف عنه أبداً .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤﴾ ﴾

فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ : فكيف تصرفون عن توحيده .

إن الإنسان يحتاج لأجل حياته إلى أشياء لا تُحصى ، وهذه الأسباب الضرورية للحياة لا يتمكن من توفيرها أحد غير الله الواحد ، فإذا كان الله وحده هو خالق هذه الأشياء ومدبرها بلا منازع ولا شريك ، فكيف يجوز اتخاذ آلهة أخرى سواه !؟!

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ ﴾

فَلاَ تَغُرَّنَّكُمُ : فلا تخدعنكم ولا تلهينكم بالزخارف والملذات .

الغَرُورُ : ما يغر ويخدع من شيطان وغيره .

إن نوعية الحياة الدنيا ، كما أخبرنا الله بها عن طريق رسله ، ربما تبدو صورةً أقرب إلى الخيال منه إلى الحقيقة؛ لأن المرء لا يتعرض لها في الحال . أما أشياء الدنيا فهي - على نقيضٍ من ذلك - تبدو حقيقةً ؛ لأن المرء يعاني منها ويجريها في اللحظة الراهنة .. وإن الموت والزلازل والحوادث والنكبات لا تفتأ تنبه المرء من سبات الغفلة ، كأنها هي سابق إنذارٍ بالقيامة قبل أن تقوم بالفعل ، غير أن الشيطان لا يلبث أن يصرف أذهان الناس عن التفكير في ذلك مقرراً أن كل هذه وقائع تحدث بموجب الأسباب والعلل ،

دون تدخل الإرادة الإلهية.. بيد أن كل فكرةٍ من هذا النوع خدعة شيطانية ، إذْ لابد من يومٍ يتميز فيه الصدق من الكذب ، والحق من الباطل .. يوم يلقى المحسن جزاء إحسانه ، والمسيء عقابه إساءته!!

﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾ ﴾

فَلاَ تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ: فلا تهلك نفسك عليهم غموما وأحزانا لكفرهم .

لقد أعطى الله كل إنسان قدرة التأمل والتفكير ؛ لكيما يميز الحق من غير الحق، فمن يستعمل استعداده الفطري هذا يهتد ، ومَنْ يهمل هذا الاستعداد الفطري لا يوفق للاهتداء !.

وإن المرء حين يظهر أمامه الحق ، يشعر بهزّةٍ ذهنيةٍ ؛ يجد نفسه معها على مفترق طريقين : فإن هو أسرع إلى الاعتراف بالحق ، سار ذهنه من فوره في الاتجاه الصحيح المستقيم ، ودخل هو بالتالي في عداد المسافرين لأجل الحق . وعلى العكس من ذلك فإن عرضت له عندئذٍ أية مصلحةٍ أو عقدةٍ نفسيةٍ ، يمتنع عن الاعتراف بالحق خضوعاً لسلطانها ، فيأخذ ذهنه في تلفيق ألوانٍ شتى من المبررات لعدم اعترافه ، وهو يحاول أن يظهر عمله القبيح في ثوب العمل الحسن ، وهذا مرض ذهني . والمصابون بهذا المرض الذهني أبداً لا يوفقون إلى الاعتراف بالحق ، حتى يفاجئهم الموت ، وهم على حالهم ذاك ، فيقودهم إلى محكمة الله ، ليلقوا جزاء ما عملوا!!

﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴿٩﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ

ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾

فَتُثِيرُ سَحَاباً : تعركه وتهيجه

النُّشُورُ : بعث الموتى من القبور للجزاء .

يُرِيدُ العِزَّةَ : الشرف والمنعة .

الكَلِمُ الطَّيِّبُ: كلمة التوحيد وجميع عبادات اللسان.

وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ: يرفع الله العمل الصالح ويقبله .

يَبُورُ : يفسد ويبطل .

إن العالم الراهن تمثيل للآخرة ، فمن ظواهره المطر ، الذي يمثل لنا بشكل واقعةٍ معلومةٍ واقعةً غير معلومةٍ ، وما المطر؟ إنه - باختصار - نتيجة عملٍ موحّد يشترك فيه الكون بأسره ، فمن خلال تفاعل الشمس والهواء والبحر والجاذبية ، وما إلى ذلك من العوامل والأسباب الكونية الهائلة ينشأ ذلك المطر الذي يبعث الحياة والحيوية في الأرض اليابسة المجدبة .

وظاهرة المطر هذه تبرهن على أن مدبر الكون يتمتع بالاختبار الكامل والقدرة المطلقة على الكون كله، حيث إنه يُحدث واقعةً بحسب خطته ، ثم هو يقوم إذا انمحت آثارها بإعادتها من جديدٍ ؛ ولو استدعى الأمر تحريك الكون وتشغيله بما فيه !!. وإن إعادة الأرض الهامدة ناضرةً خضراء من جديدٍ ، وإحياء الإنسان الميت من جديدٍ ، واقعتان مماثلتان تماماً .. فإذا قام الدليل على إمكان الواقعة الأولى، فيقوم الدليل تلقائياً على كون الواقعة الأخرى المماثلة لها ممكنة الحدوث !

obeikandl.com

إن العالم الراهن موضع امتحانٍ ، ومن ثم فقد يُتاح العزة هنا حتى لمن لا يستحقها من الناس على نحوٍ مؤقتٍ ، ولكن العزة ستكون في الآخرة خالصةً لأولئك وحدهم ، الذين يستحقونها في واقع الأمر ، ومعيار هذا الاستحقاق هو الكلم الطيب والعمل الصالح ، أي أن يجد المرء ربه بحيث يصير ذكره تعالى جزءاً لا يتجزأ من كيانه ، وابتغاء مرضاته هو عمله الذي يكرس لأجله كل طاقاته. والذين يبنون حياتهم على هذا الطراز ، يتكفل الله لهم بالنصر والتأييد ، ومَنْ صار الله نصيره ومؤيده ، فلن يجد إلى النيل منه أو التغلب عليه أحد سبيلاً !

﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾

أَزْوَاجاً : ذكورا وإناثا .

مُّعَمَّرٍ : طويل العمر .

خلق الإنسان الأول – آدم عليه السلام – وقد تم تركيبه من الأجزاء الأرضية . ثم أودع الله سر الإنسان في قطرة ماء ، شأنها شأن البذرة تحوي – على صغرها – شجرةً كاملةً، ثم بدأ تعالى النسل الإنساني ومكّنه من البقاء والاستمرار بجعل البشر أزواجاً – ذكراً وأنثى – وهذه الواقعة تدلنا على قدرة الله اللاّمتناهية.

هذا ، وإن جنينا حين يبدأ بالنمو داخل الرحم ، فيجد هناك كل الأسباب الضرورية الملائمة مهيّأة له دون طلبٍ . وهذا الواقع يقيم الدليل – إلى جانب إثبات القدرة – على أن خالق الجنين كان على سابق علمٍ بحاجاته ، وإلا فكيف استطاع أن يقوم بهذا الترتيب الكامل الدقيق لما يلزم لنشأة الجنين ونموه بصورةٍ مسبقةٍ !؟ وهذا هو شأن

العمر كذلك .. إذْ ليس في مقدور أحدٍ منا أن يحدد عمره وفق مرضاته هو ، حيث يبدو أن قضية تحديد الأعمار إنما تتعلق بأي وجودٍ خارجي أعلى ، فهو يرفع (يتوفى) مَنْ يشاء ولمّا يتجاوز عمره سنوات قصيرة معدودات ، ويهب لمن يشاء عمراً طويلاً ، وليس في هذه الوقائع كلها دخل لأحدٍ من دون الله ، إذن ، فكيف يجوز أن يخاف الإنسان من أحدٍ غير الله ، وأن يعقد آماله على أحدٍ سواه !؟!

﴿ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾ ﴾

عَذْبٌ فُرَاتٌ : طيب حلو شديد العذوبة .

مِلْحٌ أُجَاجٌ : شديد الملوحة أو المرارة .

حِلْيَةً : اللؤلؤ والمرجان من الملح .

مَوَاخِرَ : جواري بريح واحدة .

يُولِجُ : يدخل .

لأَجَلٍ مُّسَمًّى : مقدارا لفنائهم (يوم القيامة)

قِطْمِيرٍ : هو القشرة الرفيعة للنواة .

يوجد على سطح الأرض مخزون مائي هائل ؛ وهو موزع على البحار والمحيطات الواسعة بشكل المياه المالحة من ناحيةٍ ، وعلى الأنهار والترع والينابيع بشكل المياه العذبة من ناحيةٍ أخرى ، وإن الماء مصدر فوائد كثيرة لا تحصى للإنسان ، حيث إنه يُستخدم للشرب والري ، وهو يمثل بما يعيش فيه من شتى ألوان الحيوانات المائية مورد غذاءٍ ثمين للإنسان، وإن هذه البحار الممتدة على ثلاثة أرباع الكرة الأرضية هي بمثابة شوارع مائية فسيحةٍ قد جعلت الأسفار ونقل البضائع من قارةٍ إلى أخرى أمراً بالغ السهولة، كما يُستخرج من أغوار البحار اللؤلؤ والمرجان وغيرها من النفائس الغالية الأخرى .. إلخ .

وبالإضافة إلى هذا فقد سخر الله الشمس والقمر في الفضاء الرحيب . وفي ذلك من المنافع العظيمة ما لا يقع تحت الحصر . وقد جعل الأرض تدور في محورها حول الشمس بحسابٍ دقيقٍ يترتب عليه اختلاف الليل والنهار بانتظامٍ . وهناك أنظمة كونية لا تحصى من هذا النوع أنشأها الله وحده ، وهو وحده يقوم بإدارتها .. إذن ، فمن يستحق أن يوجه إليه الإنسان عواطف شكره غير الله ؟ ومَنْ يقدر على قضاء حاجات الإنسان ؛ آلله الذي طاقاته لانهائية ؛ أم تلك الآلهة المفترضة التي لا تمتلك من السلطة والاختيار شيئاً ؟!

﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ ﴾

وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ : لا تحمل نفس آثمة .

مُثْقَلَةٌ : نفس أثقلتها الذنوب

حِمْلِهَا: ذنوبها التي أثقلتها .

تَزَكَّى : تطهر من الكفر والمعاصي .

إن الإنسان في العالم الراهن موجود غير منيع بكل ما تتسع له هذه الكلمة من معنى. وإنما يتوقف أمر الإنسان بكليته على توازن الطبيعة الخاص . ولو اختل هذا التوازن يوماً ، لانتهت الحياة الإنسانية في أقل من لمح البصر .

فلو غادرت الشمس موقعها الحالي ، فاقتربت من الأرض ، لاحترق جميع البشر واستحالوا رماداً . وإن جزءاً كبيراً من باطن الأرض عبارة عن مادة ملتهبة شديدة الحرارة ؛ ولو اتجهت حركة هذه المادة الملتهبة إلى جانب السطح الأعلى ، لتعرضت الأرض لزلزال عنيفٍ يحول مدنها العامرة إلى خرائب موحشةٍ . ومن جهة الفضاء العلوي لا تزال تتساقط الشهب أو النيازك كل حينٍ وآنٍ ، ولو فسد نظام الكون الحالي، لتحولت هذه النيازك إلى وابلٍ من الحجارة لن يقينا من ويلاته شيء . وثمة إمكانات مدمرة كهذه لا حصر لها هي محيطة بالإنسان من كل صوبٍ ، والحقيقة هي أن الإنسان مخلوق كله احتياج ، وإن الإنسان بحاجة إلى الله ، وليس الله بحاجة إلى الإنسان .

إن أثقال يوم القيامة ستكون أثقال الذنوب التي اقترفها المرء في حياته ، وليست أثقال الطوب والحجارة، وقد يمكن أن يشارك شخص ما أخاه أو صديقه في حمل أثقالٍ من الطوب والحجارة ، ولكن الخزي والألم اللذين يلحقان أحد الناس لقاء ما عمله من سوء ، فإنما يكون ذلك عذاباً ذاتياً محضاً ؛ لا مجال فيه للمشاركة من قبل أحد الناس .

الحقيقة واضحة غاية الوضوح، ولكن الحقيقة لا يفهمها إلا مَنْ يريد أن يفهمها أما الذي لا يكون جاداً بشأن معرفة الحقيقة فلا يمكن إفهامه أي شيءٍ مهما كان سهلاً قريب المنال!

﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾ ﴾

الحَرُورُ : شدة الحر ليلا كالسموم .

وَبِالزُّبُرِ : الكتب المكتوبة كصحف إبراهيم وموسى عليهما السلام .

كَانَ نَكِيرِ : إنكاري عليهم بالتدمير .

من البديهي أن ما يُرجى من النور لا يُرجى من الظلام .. وهكذا ما يُتوقع من الظل غير متوقع حصوله من الحر ، وهذا هو شأن الإنسان ، فالناس بين بصيرٍ وأعمى . أما البصير فسرعان ما يتعرف على سبيله حين يراه ، وأما الأعمى فلا يسعه إلا أن يبقى تائهاً يتخبط ؛ دون أن يتمكن من التعرف على سبيله أبداً .

وكذلك ينقسم الناس - من حيث المعرفة الداخلية - إلى نوعين : حيّ وميتٍ ، أما الإنسان الحي فهو الذي ينظر في الأقوال نظرة متعمقة فاحصةً ، فيسبر أغوارها ، ويدرك المعاني مخترقاً الحواجز اللفظية البراقة ، ويحاول الوصول إلى الحقيقة الأصلية

متخطياً القشور والجوانب السطحية . والذي يختبر الأشياء ويحكم عليها باعتبار جوهرها وليس باعتبار مظهرها الشكلي وحده ، ويركز بصره دائماً على الحقيقة الأصلية وليس على التفريعات الهامشية ، والذي لا يطيق صبراً ، إذا ما عرف الصدق ، على ألا يربط نفسه ومصيره به ، إن أمثال هذا هم الأحياء ، وهم الذين يكتب لهم التوفيق لقبول الحق في العالم الراهن. وأما الذين يتصفون بصفاتٍ هي على نقيضٍ مما تقدم ذكره آنفاً ، فهم الموتى، لا يحالفهم التوفيق أبداً لقبول الحق في عالم الامتحان هذا، وإنما هم يظلون عمياناً أو كالعميان إزاء دعوة الحق ، إلى أن تنتهي آجالهم فيصلوا إلى الله لكي يذوقوا وبال عماهم !!

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ ﴾

جُدَدٌ: ذات طرائق وخطوط مختلفة الألوان .

وَغَرَابِيبُ سُودٌ: متناهية في السواد كالأغربة .

ينزل من السحاب ماء واحد ؛ وتنبت به أشياء ذات أنواع وألوان شتى ، بما فيها أشجار مثمرة وأحراش شائكة .. وهكذا فإن مادةً واحدةً هي التي تتجمد فتأخذ شكل الجبال والصخور ، ولكنها هي الأخرى تأتي متعددة الألوان ، بين أحمر وأبيض وأسود فاحم.. وكذلك تأكل جميع الحيوانات غذاءً واحداً ، ولكن بعضها مفيد للإنسان وبعضها الآخر غير مفيد!

ونعلم من هذا أن العطاء وإن كان عاماً ، إلا أن الكل ينتفع به على قدر كفايته

واستعداده ، وهذا هو شأن الإنسان كذلك ، فإن فيوض الرحمة الإلهية التي تُغدق في صورة الدعوة إلى الحق ، وإن كانت واحدةً في حد ذاتها ، إلا أن تأثر الناس بها يختلف - كماً وكيفاً - باختلاف أمزجتهم وتنوع ميولهم وأذواقهم ، فمنهم من يجد في دعوة الحق غذاءً لروحه .. فسرعان ما يتلقاها بالقبول ويربط نفسه بها بأوثق رباطٍ .. ومنهم مَنْ تحول نفسيته المعقدة دون اعترافه بالحق ، فيبتعد عنه ، بل ربما لا يلبث حتى يتصدى لمعارضته ومحاربته .

وإنما العالم حقاً هو الذي تكون دعوة الحق صدى لنبضات قلبه ، حيث إنه كان لا يزال محتفظاً بنور الفطرة الإلهي ، مما جعله يتعرف على الحق فور ظهوره، وبالمقابل فإن الجاهل هو الذي أخفى نور فطرته وراء حجب كثيفةٍ ، ومن ثم لا ولن يحالفه التوفيق للتعرف على الحق إذا ما تجلّى أمامه!

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾ وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾ ﴾

لَّن تَبُورَ : لن تكسد وتفسد ، أو لن تهلك .

إن رجل العلم هو رجل المعرفة ، والذي يفوز بالمعرفة يتخذ من كتاب الله دليله ومرشده الفكري ، وهو يصبح عبداً عابداً لله ، ويعود سمحاً كريماً فيما يتعلق بحقوق الناس، لدرجة أنه يخصص لهم أيضاً جزءاً من ماله الذي كسبه بمجهوده الذاتي .. وترتفع معنوياته بحيث إنه يسخر وجوده كله في سبيل إعلاء كلمة الله قانعاً راضي النفس بأنه سينال أجره في الآخرة !

ومن الأدلة الناطقة بصدق القرآن الكريم وحقيّته: أنه مطابق كل المطابقة لتلك النبوءات التي كانت قد وردت في الكتب السماوية قبل نزوله بقرونٍ . وإنه لو كان أحد الناس جاداً حق الجدية لصار هذا الواقع كافياً لإيمانه بالقرآن الكريم !!

﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾ ﴾

لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم : رجحت سيئاته على حسناته .

مُّقْتَصِدٌ : استوت حسناته وسيئاته .

سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ : رجحت خيراته على سيئاته .

الحَزَنَ : كل ما يحزن ويغم .

دَارَ الْمُقَامَةِ : دار الإقامة الدائمة (الجنة) .

نَصَبٌ :تعب ومشقة .

كان سيدنا يعقوب حفيداً لسيدنا إبراهيم - عليهما السلام - وقد ظل الأنبياء ، بدءاً من يعقوب وانتهاءً بالمسيح عيسى ابن مريم - عليهم صلوات الله وسلامه - يبعثون في سلالة بني إسرائيل .. وهكذا فقد استمرت سلسلة النبوة في نسل اليهود نحو ألفي سنةٍ ، غير أن اليهود لم يعودوا فيما بعد أهلاً لكي يُؤتمنوا على الكتاب الإلهي ، ومن ثم وقع اختيار الله على أمة حية أخرى (بني إسماعيل) لتكون حاملة أمانة الكتاب

الإلهي . وقد كانت ولادة رسول الله - ﷺ- في بني إسماعيل تنفيذاً لهذا القرار الإلهي ذاته ، وبنو إسماعيل هؤلاء هم الذين عناهم الله في قوله ﴿ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ..﴾ .

ولما عرض رسول الله - صلى الله عليه وسلم - القرآن على بني إسماعيل ، انقسموا إلى أصناف ثلاثةٍ: فمنهم مَنْ تصدوا لمعارضته ، وآخرون اختاروا طريقاً وسطاً .

وأما الطائفة الثالثة فهي طائفة السابقين المقدمين ، وهؤلاء هم الذين صنعوا تاريخ الإسلام العظيم بمناصرتهم لنبي آخر الزمان - صلى الله عليه وسلم - .

وقد اضطرُ هؤلاء لأجل حماية القرآن رفع لوائه عالياً خفاقاً إلى الحرمان من كل ألوان الراحة ، وتحولت حياتهم العملية، نتيجةً لذلك ، إلى حياة كلها صبر وكفاح ومشقة وتعب .. وسيعوضهم الله في الآخرة ، بدل تضحيتهم تلك ، بأن يدخلهم جناتٍ لن يعكر صفو عيشهم فيها أي حزنٍ أو ألمٍ إلى الأبد!

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾ ﴾

لُغُوبٌ : إعياء من التعب وفتور.

وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ : يستغيثون ويصيحون بشدة .

إن المنكرين للحق في الدنيا سيعترفون به في الآخرة أتم الاعتراف .. ولكنه لن يغني عنهم يومئذٍ شيئاً ؛ ذلك لأن الاعتراف في الآخرة هو اعتراف الإنسان المقهور ، بينما

الاعتراف المطلوب عند الله هو الاعتراف الاختياري دون الإجباري !.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٣٨﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾ ﴾

جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ : خلفاء من كان قبلكم .

مَقْتاً : أشد البغض والغضب والاحتقار .

خَسَاراً : هلاكا وخسرانا.

المراد بالخلافة هنا هو خلافة الأمم والشعوب الغابرة ، وعليه فمعنى قوله : ﴿ جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أي استعمركم في الأرض بعد ذهاب الأمم السابقة . وقد جرت سنة الله تعالى بأن يتيح لإحدى الأمم فرصة السكنى والاستقرار والعمل في جنبات الأرض ، ثم إذا أقامت تلك الأمة الدليل على عدم كفايتها وفقدانها للأهلية ، استبدل بها أمة أخرى مكانها . وهكذا ستبقى عملية استخلاف الأمم ، الواحدة تلو الأخرى، جاريةً فوق الأرض، إلى أن يرثها الله ومَنْ عليها !

إن قوانين الطبيعة ، تلك التي تم اكتشافها في العصر الحديث ، تدلنا على أنه يمكن هنا التقاط صورة شيءٍ يغمره ظلام حالك ، وتحويل صوتٍ غير مسموعٍ في ظاهر الأمر بواسطة الآلة إلى صوتٍ مسموعٍ بوضوحٍ ! إن هذه الإمكانات الكامنة في المخلوقات تعرفنا بقدرة الخالق العظيم ، إذْ نعلم منها أن خالق الكون هو إله يعلم الغيب ، وهو يقدر على أن يسمع حتى خبايا القلوب ، وعلى الجملة فإن أمر الإنسان مع إلهٍ عليمٍ وقديرٍ لا يمكنه أن يخفى عنه جرماً، صغيراً كان أو كبيراً ، كما إنه ليس في مقدوره أن يغير قضاءه أو يعدّله بأية حيلةٍ أو وسيلةٍ !!

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَـٰهُمْ كِتَـٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّـٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾ ﴾

جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ : خلفاء من كان قبلكم .

مَقْتاً : أشد البغض والغضب والاحتقار .

خَسَاراً : هلاكا وخسرانا .

هل الأصنام والأنداد التي تعبد من دون الله تستطيع خلق شيء ، أو لها نصيب في السماوات والأرض ؟ كلا، والذي يقول بذلك إنما يتبع أهواء نفسه وأمنياتها ، وما ذلك إلا محض كذب وخداع . فإن الله هو خالق كل شيء وهو المتصرف في جميع شئون هذا الكون.

﴿ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾ ﴾

جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ : مجتهدين في الحلف بأغلظها وأوكدها .

نُفُوراً : تباعدا عن الحق وفرارا منه .

وَمَكْرَ السَّيِّئِ : والمكر السيئ (الكيد للرسول) .

وَلاَ يَحِيقُ : ولا يحيط أو لا ينزل .

فَهَلْ يَنظُرُونَ : فما ينتظرون .

سُنَّةَ الأَوَّلِينَ : سنة الله فيهم بتعذيبهم لتكذيبهم .

كان العرب ، كلما سمعوا أن اليهود وغيرهم من الأمم كذبوا أنبياءهم وعصوا أمر رسلهم ، قالوا بحماسٍ بالغٍ: لو ظهر بيننا نبي لصدقنا به ولأطعناه على أحسن وجهٍ وأكمله.. ولكنه لم يكد يُبعث فيهم نبي حتى ناصبوه العداء !

وهذه النفسية توجد - بشكلٍ أو آخر - في كل الناس .. فما من امرئٍ في هذه الدنيا إلا تجده يتظاهر بأنه محب للحق ، ويدعي أنه إذا ما أتاه أمر صحيح فسوف يذعن إليه ويتقبله دون توقفٍ أو ترددٍ ، ولكن حين يتجلى الحق مصحوباً بأدلةٍ واضحةٍ ساطعة لا سبيل إلى إنكارها ، فإذا به يقابله بالإعراض ، بل وينبري لمعارضته وزرع العراقيل في طريقه .

وسر ذلك أن إنكار الحق ليس من خصوصيات أمةٍ دون أمةٍ ، وإنما هو من خصائص النفس البشرية العامة ؛ فالإيمان بالحق يكون ، في الأعم الأغلب ، مرادفاً للقضاء على كبرياء الذات ، وبما أن المرء لا يريد أن يفقد كبرياءه الذاتي ، لذا فهو لا يكاد يستعد بطبيعة الحال للإيمان بالحق ، ويغيب عن باله أن إنكار الحق ، وإن كان في مقدوره ، إلا أن إنقاذ نفسه من عاقبة إنكار الحق الوخيمة ليس في مقدوره البتة !

﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴿٤٥﴾ ﴾

كان الإنسان قد منح حرية العمل في هذا العالم ، ولكنه أساء استخدام هذه الحرية،

حيث تبلغ إساءات الإنسان وأخطاؤه من الكثرة إلى حد أنه لو صار يؤاخذ عليها فور اقترافها ، لانقرض النوع الإنساني من الأرض بيد أن حرية الإنسان أتيحت له من أجل الامتحان .. وهذا الامتحان له مهلة معينة ، وتمتد هذه المهلة - بالنسبة للفرد - إلى حين وفاته ، وبالنسبة إلى البشرية جمعاء إلى يوم القيامة ، وذلك هو سر بقاء نسل الإنسان واستمراره على وجه البسيطة .. ولكن كما أن هناك حقيقةً تقول بأن الله لا يؤاخذ أحداً قبل انقضاء المهلة المحددة ، فكذلك ثمة حقيقة أخرى تقول بأنه تعالى سيؤاخذ الإنسان حتماً على أثر انقضاء المهلة المحددة ، ولن يجد أحد ، كائناً من كان ، إلى الهرب من بطشه ومؤاخذته سبيلاً !

obeikandl.com